2- كنا بخير لولا أحدهم..

"لكل اللي اتوجع ومتحملش.. أهديكم تلك السطور"

ندى سعد

أنا نسيم تخرجت حديثا في كلية التمريض أحببت التخصص بمجال التمريض النفسي، أحببت علم النفس كثيرا لكن طوال فترة دراستي لم أر بعيني تلك الأمراض عن كثب، فقط قرأت الكثير وسمعت الأكثر وحذرني الجميع من ذلك القسم الذي قد يؤثر عليَ بالسلب، ولكني لم أستمع لذلك.

اليوم هو الأول لي بالمصحة النفسية.. وبرغم ما اعتراني من حماس.. إلا أن الخوف نجح بدق أبواب قلبي، لكني دخلت بابتسامة واسعة متفائلة لما سوف يحدث.. ونتيجة لتفوقي قاموا بإعطائي حق الاختيار أن ابدأ ما بين قسمي الرجال والنساء، فاخترت النساء ظنًا مني أنه أهدأ، لكن ظني اختفي بمجرد رؤيتي للابتسامة السمجة التي ارتسمت على شفتي مدير المستشفى الذي أكد لي أن الرجال أفضل، حدثت نفسي بأنه منحاز لبني جنسه وأكملت قراري.

دلفت إلى القسم لأبدأ بممارسة مهامي بحماس شديد لمحت بعيني عبارة قد كُتبت أعلى سرير إحدى المريضات

"كنا بخير لولا أحدهم"

لم أعرها أي اهتمام سوى ابتسامة ساخرة، فكيف للآخرين أن يتحكموا بمصائرنا.. يا له من غباء!

التقيت بأول مريضة بالقسم والتي بدا عليها الهدوء واللطف.. فاقتربت منها راسمة ابتسامتي فالتفتت إليَ لتبادلني الابتسامة.. قبل أن أتحدث قائلة:

- أزيك يا سلمى

ردت بطريقة طفولية للغاية بالرغم من أنها قد تجاوزت الستين من عمرها قائلة:

- الحمد لله يا دكتورة

- أنا مش دكتورة أنا الممرضة بتاعتك يا سلمى عاملة أيه النهاردة؟

- كويسة أنتي اسمك أيه بقى؟

- أنا نسيم

اتسعت ابتسامتها وبدأت تغني بصوت عالي قائلة:

- نسيم يا نسيم يا أم شعر يطير يا نسيم

تجاهلت طريقتها الطفولية، فلابد أن أُشعرها بطبيعة تصرفها هكذا تعلمت ونفذت ما تعلمته، قاطعت غناءها بقولي:

. أنتي بقالك قد أيه هنا يا سلمى؟!

- بقالي 3 أيام بس

عقدت حاجبي ذهولًا من ردها.. ثلاثة أيام!!.. سلمى هنا منذ كان عمرها 22 عاما أكثر من أربعين عاما قد تحولت فجأة لثلاثة أيام؟! أيعقل أن تنسى عمرها الذي فقدته بين تلك الأسوار الحديدية، لكن ما الذي ألقى بها بين طيات تلك الأسوار؟!.. يجب أن أعلم كل شيء.

لم يمهلني الوقت لاستكمال حديثي معها، فانطلق صوت الجرس بالمصحة معلنًا عن ميعاد تناول الطعام.. فهرولت "سلمى" ممسكة بدميتها كالأطفال والفرحة تعتريها.

بدأت بالتجول بين جنبات المستشفى، المشفى بنظري سجن كبير به حديقة واسعة يوجد بها مرمى لكرة القدم، ينقسم المشفى بين مبنى

صغير خاص بالمدمنين وقسمين للرجال رجال أ ورجال ب وكذلك حريم أ وحريم ب

وبينما كنت غارقة بأفكاري إذا بصوت صريخ شديد وأحد أفراد التمريض يعلو صوته مستغيثًا قائلاً:

- قمر سرقت السكين

عدوت لأرى ماذا هنالك لأجد القسم في حالة من الهلع وجميع من في القسم ممسكون بقمر والدم يسيل على الأرض من يدها اليسرى، والصراخ يدوي بأركان المشفى، انتابتها نوبة صرع شديدة فسرقت السكين وقطعت أحد أصابعها، قمنا بالإمساك بها وللأسف لجأنا إلى جلسة الكهرباء المؤذية.

- شغلوا على 8 أمبير

- شغلوا على 9 أمبير

كان صراخها يزداد كلما زادت قوة الكهرباء قدميها ترتفع لأعلى وتجز على أسنانها بقوة لولا العازل المطاط الذي وضعناه بفمها لكانت اجتزت لسانها.

- اطفي الجهاز نيموها في الأوضة ولفوا أيديها بشاش وغيرولها علي الجرح

قالها الطبيب وهو يخرج من الغرفة ببرود المشاعر ولا مبالاة وكأنه انتهى من ري زهور الحديقة لتوه، أي تري ذلك لتعوده علي تلك المشاهد؟ وهل سأتحول في يوم من الأيام إلى بلادة المشاعر تلك؟ لا أعلم...

قمر تلك الفتاة ذات الوجه الملائكي والجمال الفتان ها هي تقطع من جسدها جزءًا بمحض إرادتها.. يا لذلك الزمان، لا أصدق أن وجهًا مثل

ذلك القمر النائم أمامي الآن.. كان منذ قليل رافضًا لذاته، لجماله، رافضًا حتى لأجزاء جسده.

انتهى يومي الأول المليء بالأحداث يا له من يوم، اهتز هاتفي معلنًا عن ورود مكالمة.. إنه سمير حبيب قلبي وروحي يعمل ضابط بالشرطة.. فأجبت على اتصاله بلهفة:

- ألو أيوة يا حبيبي

- أيوة يا روحي فينك أيه الشغل خلاص خدك مني

- مقدرش أبدا بس كان يوم متعب أوي سامحني

- أسامحك أيه يا عبيطة ده أنتي حبيبتي قومي البسي عشان أخرجك يلا من زمان مخرجناش أنا كلمت باباكي وقال ماشي

- بجد أنت أجمل راجل في الدنيا يا سمير بحبك

***

"مالك يا نسيم حاسك زعلانة؟"

هكذا تساءل ليقطع شرودي وأنا جالسة بجواره.. فهممت برسم ابتسامة على شفتي قبل أن أجيب:-

- مفيش بس مضايقة من اللي حكيتهولك على الحالات في المستشفي.

مد يده مداعبًا خصلات شعري.. فهو يعلم أني أعشق تلك الفعلة التي تحولني إلى طفلة قبل أن يتحدث بصوته الأجش الذي أعشقه قائلاً:-

- نسمتي أقوي من كده، عايزك متتعامليش مع الأمور بحساسية زيادة

- أنا زعلانة عليهم إزاي يسيبوا نفسهم بالضعف ده أنهم ميقفوش ويقدروا يكملوا أيه يعني أن نفقد حد اه الموضوع مؤلم لكن المفروض فترة وتعدي

- طب سيبك من كل ده اضحكي بقي عشان خاطر حمص

- حمص مين؟!!

- ابننا أنتي نسيتي حمص ده أنا خلاص اشتريت الأوكر بتاعت الأبواب اينعم أنا لسه مركبتش الأبواب بس أهم حاجة الأوكر أصل أنا بعشق الأماكن المغلقة

انطلقت ضحكاتي بين جنبات سيارته، فأنا أفهم ما يقصده تماما.. قبل أن أتحدث قائلة:-

- يخربيت قلة أدبك.. قسم الآداب بوظ أخلاقك

- يابوي عالضحكة يا جدعان بما أن أنك ضحكتي وإحنا مخطوبين وكاتبين كتاب وكده

- أيوة يعني عايز أيه لا يا حبيبي أنا أشرف من الشرف

- ده أنتي أشرف نفسه ليه نيتك وحشة أنتي مخك أخ منك أنتي أخ أنا قصدي أجبلك آيس كريم

***

توجهت إلى المشفى باليوم التالي، أول من رأيت كانت عزيزة تلك المرأة التي تنهمر من فمها أبشع الألفاظ لمجرد أن أقول لها صباح الخير فقط، لا اعلم لماذا حتى الآن؟!.. لكن تشخصيها فصام في الشخصية معظم حالات المستشفى لها نفس التشخيص لكن لكل تشخيص حكاية قررت الابتعاد الآن عن عزيزة والاقتراب منها في وقت آخر تكون جفت تلك الكلمات البذيئة من حلقها، انتقلت لغرفة العزل لأجد قمر المسكينة مستلقية علي السرير مرتدية ذلك القميص المعكوس.. إحساس شديد الصعوبة أن تتخيل أنك مقيد بتلك الطريقة الحيوانية للحظة وليس لأيام.. اقتربت منها متأملة ملامح الفزع بعينيها، فربت على كتفها في محاولة مني لبث الطمأنينة بروحها.. وبدأت الحديث:-

- قمر أزيك النهاردة

- أنا كويسة بصي أنا مش هعمل كده تاني بس متحروقنيش تاني والنبي

- إحنا محرقنكيش يا قمر بس أنتي كانت أعصابك تعبانة وعملنا ليكي جلسة كهرباء بسيطة

- لا الكهرباء دي بتحرقني ربنا يخليكي والنبي متحرقونيش تاني

- طب بس بشرط تحكيلي عملتي كده ليه امبارح

زاغت عيناها يمينًا ويسارًا وكأنها تتأكد من خلو غرفة الحجز قبل أن تبدأ بالكلام بصوت هامس:-

- هقولك ومتقوليش لحد ها ده سر أصل الصباع ده كان في مرض أسود وكان عايز يموتني قمت قطعته عشان مموتش أنتوا ودتوه فين أوعى يموتك أنتي كمان ده عايز يموت أي حد

- متقليقش يا قمر هو مش هيموتك بس أوعديني لو حسيتي أي حاجة في جسمك عيانة وشايفة أنها هتموتك، متقطعهاش قوليلي وأنا اديلك علاج

- حاضر يا مس نسيم هتطلعوني من الأوضة امتي

- كل ما كنتي هادية كل ما طلعتي أسرع سلام يا قمر

تجولت في أنحاء القسم لأجد نادية تنظر إلي الحائط وتضحك بقوة، واضح أنه هوس وهلاوس سمعية وبصرية ذهبت لأجلس بجانبها وأبدأ بالحديث معها:-

- أزيك يا نادية

نظرت إليَ بغضب قبل أن تتحدث بنبرة العتاب قائلة:-

- اسكتي.. مش شايفاني بكلمه

- بتكلمي مين؟

- بكلم عبده.. بقوله ميعملش نار عشان منموتش اسكتي بقا بكلم معاه

أعادت نظراتها إلى الحائط من جديد وبدأت بالحديث بفزع كبير قائلة:-

- بقولك أيه يا عبده أنا طيبة معاك عايز تموتنا ليه طب أقولك موت عزيزة أصلها سموية مبتحبش حد لكن بلاش نار بلاش يا عبده

كنت أراقبها عن كثب كانت بالفعل تضحك منذ ثانية وبدت عليها فجأة علامات الفزع والخوف كأنها بالفعل تحترق بنار عبده

- نادية مين عبده وعملك أيه؟.. احكيلي متخافيش.

خفضت رأسها إلى الأسفل وتنهدت تنهيدة وكأنها عبرت بها الزمان، قبل أن تلتفت إليَ لأرى تلك الدموع المحتبسة تتلألأ بعينيها.. ليخرج صوتها الواهن لتتحدث قائلة:-

- كان حياتي كلها.. فضلت أحبه 5 سنين كان جارنا كنت بقف في عز التلج عشان بس ألمحه يوم.. وبعد فترة جه وخطبني كان قلبي بيرقص من الفرحة واتجوزنا

- أومال أيه اللي حصل؟

- حصل أن الداء اللي عند كل الرجالة كنت عند أمي ورجعت بدري لقبته في السرير مع أختي الوحيدة محستش غير وأنا بجري علي المطبخ أجيب السكينة وحطتها جوه قلبه

حاولت تهدئة خوفها ولكنني لم أستطع، فذهبت لمتابعة نشاط يومي وعقلي يدور بالتفكير أيعقل أن يخونني سمير مثلما فعل ذلك العبده

بنادية، لكن سمير يحبني.. فيصرخ عقلي.. وما الفارق؟؟ ظللت أحارب تلك الوساوس حتى طردتها من عقلي.. طردت تلك الوساوس من عقلي وذهبت لأكمل عملي حتى انتهاء اليوم.

ذهبت إلى المنزل متعبة وقعت عيني على إحدى السلوك العارية بحائط المنزل.. لا أعلم لمَ قفزت أحاديث قمر لي عن ألم الكهرباء.. خانني إحساسي بالفضول.. فلم أشعر بنفسي إلا ويدي ممتدة إلى ذلك السلك والكهرباء تسري بجسدي حتى أسدل الظلام ستائره على عيني.

***

- الحمد لله يا مدام هي بخير أغمي عليها بس من خضة الألم

- طيب شكرا يا دكتور، نسيم حبيبتي.. فوقي ما تخضنيش عليكي أكتر من كده.

سمعت ذلك الحوار من على بُعد وبدأت أشعر بأصابع أمي تداعب خصلات شعري.. ففتحت عيني لأجد نفسي بغرفة مشفى.. نظرت إلى أمي متسائلة:-

- في أيه هو أيه اللي حصل ؟

- مفيش يا حبيبتي أنا دخلت لاقيتك وقعة في الأرض جنب كوبس الكهربا.

- أيوة أصل كنت بشبك الفيشة واتكهربت بس متقلقيش عليا يا ماما

طرقات على باب الغرفة قطعت حديثي مع والدتي، قبل أن استمع إلى صوت سمير متسائلًا بطريقته المازحة:-

- ممكن ادخل؟

- اتفضل يا سمير

هكذا أجابت والدتي ليلج سمير الغرفة مقتربًا مني تملأ عينيه نظرات الحنان قبل أن يتحدث قائلاً:-

- عاملة أيه دلوقتي؟ خضتيني عليكي

هبت أمي من مكانها قبل أن تبرر خروجها من الغرفة بأن والدي بحاجة إليها، وبمجرد خروجها جلس سمير على طرف فراشي مصففا خصلات شعري بيديه قبل أن يتساءل:-

- ها يا قلبي عامله أيه دلوقتي؟

- الحمد لله بقيت أحسن لما شوفتك

لا أعلم لمَ قفزت قصة "نادية وعبده" إلى ذهني.. فنظرت إلى سمير والخوف يعتريني قبل أن أتساءل بصوت أوشك على البكاء:-

- سمير أنت ممكن تخوني؟

- لا طبعا أنتي مجنونة أيه الهبل وأيه اللي خلاكي تفكري كده

- مفيش بس جت علي بالي.. طب أوعدني أن عمرك كله هتفضل تحبني وعمرك ما هتخوني

- اوعدك عمري ما هخونك إنما قوليلي أنتي أحلويتي أوي كده ليه ولا اكمنك عيانة

- أنا حلوة علي طول أنت اللي مبتاخدش بالك

- احم مباخدش بالي برده؟!.. طب بقولك؟

انطلق صوت والدتي وهي تنادي على سمير قائلة:-

- يا سمير اطلع يا حبيبي اقعد بره مع ابو نسيم عايزك

ارتسمت ملامح خيبة الأمل على وجهه فهم بالرد عليها بصوت متحسر قائلاً:-

- جت في الوقت الغلط حماتي، أيواااا أنا جاي أهو يا عمي.

ضحكتُ على ردة فعل ذلك المجنون الذي أعشقه، أعلم أنه يحبني.. ويحاول جعلي مبتسمة في كل الأوقات ما أجمل أن تجدي من تحبي بجانبك دائما.

***

بعد يومين إجازة من العمل ذهبت وعندي حنين كبير ممزوج باشتياق لمرضى القسم وحكايتهم المليئة بالحزن والألم، بدأت بالمرور بين المريضات.. فعزيزة ذات الألفاظ البذيئة لا زالت على حالها، وتلك الطفلة الراقدة بجسد المرأة العجوز "سلمى" لا زالت تلهو بدميتها.. ولا زالت نادية تعاتب السراب أو بمعنى أصح عبده.. قبل أن تتعالى الأصوات الصارخة داخل القسم.. فركضت تجاه الصوت متسائلة:-

- في أيه؟

- قمر في حالة هياج ودكتور رفعت نقلها أوضة الصدمة عشان جلسة الكهربا

هكذا جاءني الرد، لم ألتفت حتى لأرى ملامح قائله بل ركضت بكل قوتي تجاه غرفة الكهرباء حتى اقتحمتها وأنا أصرخ متوسلة:-

- يا دكتور رفعت ممكن ندي لها حقنة مهدئه في حاجات تانية غير الصدمة بالكهرباء.

- أنتي مش شايفة حالتها وبعدين أنتي عشان جاية من كلية هتعلميني شغلي يلا هاتوا الجهاز

لم أشعر بشيء إلا وجهاز الصدمة ملقي على الأرض مكسر إلى مائة قطعة وأنا أصرخ:-

- اللي هيقرب لقمر هكسر دماغه

نظر إليَ الجميع بذهول، قبل أن يتحدث دكتور رفعت بلهجة محذرة قائلاً:-

- أنتي اتجننتي أنتي عارفة أنتي عملتي أيه؟

- أيوه منعت جريمة أنها تحصل

- أنا هعرف شغلي معاكي هيبقي إزاي

كان صراخه وكلماته لا تهمني بقدر اهتمامي وانتباهي لعيني قمر الشاكرة لي، الغريب أن حالتها هدئت تماما بمجرد تحطيم ذلك الجهاز

خرجت أنا وقمر من تلك الغرفة اللعينة كادت عيون كل من في القسم من مرضى تصفق لي شكرًا على إنقاذ قمر.. ومن بينهم وقفت عزيزة الرافضة للكلام مع أي من الممرضات أو حتى الأطباء.. وقفت هي الأخرى والسعادة تغمر عينها، فوجدت أن ذلك الوقت هو المناسب لتحدثي مع عزيزة لأنني أيقنت طردي من المصحة وأردت بشدة معرفة قصتها.. فاقتربت منها ببطء وهي تراقبني، وللمرة الأولى لم تندفع الألفاظ البذيئة من لسانها بل فقط صمتت.. حتى بدأت الحديث:-

- عامله أيه يا عزيزة؟

- كويسة يا اختي

لقد تحدثت؟!.. لم تسب ولم تلعن!!.. حاولت قدر الإمكان التحكم بملامح وجهي قبل أن استكمل حديثي:-

- عزيزة احكيلي حكايتك؟

- عارفة لولا أنك نجدتي البت قمر مكنتش كلمتك أبدا

تنهدت وغيرت وضعية جلوسها لتربع قدميها وتبدأ بسرد حكايتها:-

- أنا مش هبلة عشان تكوني فهمه أنا بس معدتش قادرة أعيش مع الناس اللي بره كلهم أوس.....

- عزيزة من غير شتيمة كملي

- أنا وحدة شمال أو بقيت شمال.. كل ذنبي أني حبيت رجب مشيت وراه يمين يمين شمال هيبي شمال قالي هتجوزك عشمني وخلي بيا اترجيته يتجوزني ويستر عليا رفصني برجله وقالي لا، وفي يوم أخدني شقة لاقيت فيها كل اللي ممكن تتخيليه من حشيش لنسوان على رجاله عرفت أنه قواد درجة أولى لما مرضيتش ابقى من حريمه هددني أنه مصورني وأنا معاه وهينزلها عل النت رضيت واشتغلت يوم في يوم اتعودت لحد ما في يوم لقيته هو نفسه شغال الشغلانة بتاعتي في الشقة لا وأيه احسن مني كمان مع رجالة قرفت منه ومن نفسي ومن كله واجهته ضحك ولا همه أصر عليا وغصبني محستش بنفسي غير وإزازة الخمرة فوق دماغه سايحة بالدم ساعتها بس استريحت.. ها ارتحتي لما حكيتلك عرفتي أن كلهم أوس... ولا بلاش

كنت استمع لقصتها وأنا انظر لتلك العبارة المكتوبة على الحائط "كنا بخير لولا أحدهم".. هل من الممكن أن نتأذى لهذه الدرجة؟!.. هل من الممكن أن يحولنا أحدهم من تمام العقل إلى نزيل بمصحة نفسي؟

- نسيم المدير عايزك

قطعت تلك الجملة حديثي مع عزيزة أو بالأحرى قطعت حديثي مع نفسي، توجهت إلى مكتب المدير وأنا على علم بما سيحدث.. ولجت إلى غرفة مكتبه فصاح بي قائلاً:-

- أنتي شغلتك هنا أيه؟

- يا دكتور افهمني بس

- أفهم ليه كسرتي الجهاز؟ أنتي هتدفعي تلفيات اللي حصل ومن النهاردة أنتي منقولة لقسم الرجال

ذهبت إلى قسم الرجال تنفيذًا لأوامر المدير المتعجرف الذي حتى لم يكلف خاطره أن يستمع لما سأقوله ذهبت إلى قسم رجال "ب"، لم أكن أريد مغادرة قسم النساء فلا زالت هناك من الحكايات ما أردت معرفته أردت أن استكمل حديثي مع "نادية ".. هل كان يحبها زوجها الخائن مثلما يحبني سمير؟!

كان قسم الرجال مثلما قال لي مدير المشفي في بداية الأمر هادئا لا يشبه قسم النساء نهائيا فيما يبدو أن المغني أبو الليف كان له نظرة مستقبلية عندما قام بغناء دولا مجانين.. كان المكان يشبه الدائرة الكبيرة وفتحات في السقف تسمح بالتهوية ودخول الشمس ولكن السقف شاهق جدًا تجنبًا لهروب أحدهم والغرف عبارة عن أربع غرف كبيرة وحمام واحد!!

بدأت في أول أيامي في قسم الرجال اتفحصهم جيدا، هم ليسوا كقسم النساء بتاتا أنهم قليلو الكلام يلتهمون السجائر والشاي كالجوعى.. هناك من هو صامت طوال الوقت لا يفعل أي شيء سوى الاستدارة حول أحد الأعمدة دون أن تؤلمه ساقه أو يشعر بدوار.. يعاني حالة اكتئاب شديدة وفرط حركة وليس معروف سبب ذلك أهله تركوه هنا وذهبوا وليس هناك سبب معروف، حاولت كثيرا التحدث معه ولكن كان الصمت رده.. فقررت أن أجلب له شيكولاتة.. فمن المعروف عن مرضى الاكتئاب عشقهم لها ولذلك الفتيات هن أكثر من يعشقها.. اقتربت منه وبدأت بالتحدث:-

- كريم أزيك؟!

وكالعادة جاء الصمت رده.. فأمسكت بالحلوى التي اشتريتها من أجله.. وتابعت حديثي:-

- طب بص جبتلك شيكولاتة

مد يده ليأخذها دون أن ينطق بكلمة واحدة، ولكن لا مجال لليأس.. فابتسمت وبدأت بالحديث:-

- أنا عارفة انك مش عايز تتكلم بس صدقني أنت لو حكيتلي أنا مش هقول أي حاجة لأي حد ساعات الكلام والفضفضة بتريح وبتخلي الواحد روحه ترتاح أنا أما ببقي متضايقة بحكي لحد قريب مني برتاح يمكن أنت كمان ترتاح.

- أنا عمري ما هارتاح

صُعقت من هول المفاجأة لقد تكلم نعم أن صوته قد خرج من بين شفتيه، حاولت أن أخفي فرحتي ودهشتي وأكون هادئة حتى يشعر بالاطمئنان ويحكي لي

- ليه؟ أيه اللي حصل؟ أوعدك أن عمري ما هقول لحد

- كنت وأنا صغير وحيد.. عمر ما كان ليا أصحاب ولا أي حد أمي وأبويا كانوا لإما في الشغل لإما برا البيت كنت بقعد في البيت لوحدي من وأنا عندي 4 سنين وكان النور يقطع وأفضل برضو قاعد مكاني مكنتش بتحرك ولا بتكلم ولا في أي ردة فعل الموضوع اتطور لدرجة أني لما بقيت اتحرق من حاجة أو اتعور برضو مبتكلمش مش بقول أي حتى بس مكنش حد ملاحظ ده نهائيا مكنتش مهم.. كان أهم حاجة أني باكل وبنام وبس لحد ما أمي خلفت طفل تاني اهتمت بيه بس هو خدها وأخد بابا مني كانوا بيلعبوا معاه وأنا لأ فخنقته بالليل عشان أفضل أنا بس فسبوني هنا حاجة تضحك صح في الآخر سبوني برضو هههههه سبوني ومشيوا..

تركني وذهب ليداري دموعه المنهمرة والتي تركت غصة وألما جديدين بقلبي.. انتهى يومي وذهبت إلى المنزل والإرهاق عنوان للامحي.. فتحت الباب لأجد سمير منتظرني بوجه عابس.. لم يمهلني حتى حق الجلوس بل بادر بالسؤال:-

- أزيك يا نسيم

- الحمد لله مقولتليش يعني أن أنت جاي

- أقولك ازاي وانتي مبترديش عليا طول النهار

- أسفة يا سمير بس كان عندي شغل كتير ومعرفتش اكلمك

ابتسم ساخرًا قبل أن يقول:-

- معرفتيش اه.. مش ملاحظة أنك من ساعة ما اتعينتي وأنا بقيت آخر اهتماماتك.. حياتك في الشغل ودماغك في المرضى بتوعك وناسيني وناسية كل حاجة ده منظر عروسة فرحها كمان شهر أنتي مبتجهزيش ولا بتعملي حاجة كل أما أقولك علي رأيك في حاجة أو تعالي نشوف سوا تتحججي وتقولي مش فاضية

- أنت مش شايف أنك مكبر الموضوع شوية أيوة كنت مشغولة شوية بس أنت لو بتحبني تحب دراستي وتشجعني أحقق كيان وكرير

- أمر واقع بقى هو لإما تعامليني بالطريقة دي وأسكت يأما لو اتكلمت ابقي وحش وديكتاتور وبلغي كيانك وشخصيتك صح.

للمرة الأولى تحولت أحاديثنا إلى صياح.. فنهضت من مقعدي لأتحدث غاضبة:-

- أنا شايفة أنك متعصب وشايفة أن إحنا نأجل الفرح شوية

- نعم نأجل الفرح اللي بقالنا سنتين مخطوبين و 3 شهور مكتوب كتابنا وأنا بفحت نفسي شغل وبطلع مأموريات ومبخدش أجازات غير كل فين وفين عشان اخلص البيت على الميعاد عشان سيادتك مش فاضية أقولك نأجله خالص

ذهب وصوت الباب يدوي من أثر يديه.. بكيت كثيرا.. أمي وأبي صرخا علي بأنني المخطئة لا أحد يفهمني لا أحد..

ذهبت للمشفى وأنا بمزاج سيئ لم يتصل بي سمير أنا أيضا لم أحاول، قررت أن انغمس في المرضى وحكايتهم لم تتوه عن بالي لحظة حكايات قسم النساء.. فأدركت وقتها أنني وقعت بفخ التعلق المرضي الذي طالما حذروني منه طيلة دراستي، أما عن سمير فأنا مدركة أنني المخطئة فبكيت مرارا وكثيرا، ولكن لمَ لم يفهمني سمير هذه المرة؟ أنا كنت خائفة من فكرة الزواج وتكوين عائلة وازددت رعبا عندما عملت بالمشفى ورأيت ما تفعله العلاقات من ألم ووجع خائفة من كل شيء حاولت أن التفت لعملي حتى وجدت من يقول لي بصوت خشن:-

- أنا عايز سجاير يا أبلة ربنا يخليكي

أنا مش معايا وبعدين أنت خلصت حصتك من السجاير النهاردة كلها.. أنت حد معصبك

- بصراحة بقي ايوة جمال اتشاكل معايا عشان أخدت منه سيجارة وكان هيضربني

- هو فين جمال ده؟

- أهو هناك اللي قاعد لوحده ده

- طب تعالا معايا وأنا أصالحكوا على بعض

- ما بلاش أنتي

- اشمعنا!

- هاا لا مفيش ماشي.

توجهت إلى ذلك الخمسيني الجالس بمفرده دائمًا وأنا أرى الذهول المختلط بالتحذير بأعين باقي المرضى.. ولكنني بدأت بالحديث:-

- أزيك يا جمال؟

تصاعدت أنفاسه تدريجيًا وهو ينظر لي بأعين جاحظة تحمل كل ما يدل على الكراهية قبل أن يصيح بي:-

- متتكلميش معايا وأبعدي عني مبكلمش حريم أنا

- ليه يا جمال؟

- أنتوا كلكوا زي بعض خاينين وكدابين بتخدعونا بصوتكم الناعم وجمالكم الكاذب كلكوا خاينين ومتستهلوش تعيشوا

كان يصرخ وعيناه مليئة بالدموع تأثرت جدا به واعتصر قلبي حزنًا لأجله فقررت سؤاله ليحكي ما بداخله وكانت الإجابة مفجعة:-

- عايزة تعرفي ليه كلكوا خاينين عشان هي كانت خاينة كانت عامله زي السم في العسل من برا شكله وطعمه حلو ومن جواه يقتلك من غير صوت كنت بطفح الكوتة عشان أجبلها طلباتها اللي مش بتخلص كنت ببوس التراب اللي بتمشي عليه كنت بحبها بحبها أووي مكنش فيه طلب أقدر أرفضه ليها حتى أهلي وصحابي قالتلي أبعد عنهم وبعدت عشان خاطرها كان جزاتي أيه غير وأنا مسافر سمعت خبر وفاة أمي اللي مبسألش عليها رجعت من السفر فجأة عشان أخدها وأروح العزا ملحقتش حتى دفنة أمي عشان ألاقيها نايمة في حضن واحد علي سريري فضلت واقف قدامها مش عارف اتحرك لحد ما اللي كان معاها هرب أول ما قدرت استوعب أنها فعلا بتخوني ماحستش غير ومصارينها في أيدي أيوة قتلتها ولو صحيت تاني هقتلها تاني وتالت وعاشر خاينة..

قالها وهرول بعيدا عني تألمت لألمه كثيرا لينتهي يوم آخر وتدهور صحتي أكثر.

ذهبت إلى البيت لأجد هاتفي يرن أنه سمير أجبت بسرعة وقبل أن يتكلم قولت له:-

- سمير أنا آسفة أنا بحبك والله أنا بس خايفة خايفة أووي من اللي جاي سامحني أوعي تسيبني يا سمير أنا مقدرش أعيش من غيرك والله وسيبك من أي حاجة قولتها

- طب بس خلاص متعيطيش أنا آسف أني سيبتك تخافي متخافيش أنا جنبك وعمري ما هسيبك اطمني أنا بحبك أنتي بنتي يا عبيطة قبل ماتكوني حبيبتي ومراتي حد يزعل من بنته طب اجبلك شاورما..

- اه بص

- بصيت أهو.. أيه ده أنتي حلوة أوي

- حاكم قعدتك في بوليس الآداب دي بوظتك خالص بس بقي بجد بص هاتلي واحد شاورما لحمة وواحد فراخ ومتنساش المخلل اه وهات آيس كريم بالمرة وبيبسي دايت

- بيبسي دايت مش شايف أنه ليه علاقة بالمدعكة اللي أنتي طلباها دي بس ماشي

- الله ما أنت عارف أني وأنا زعلانة بأكل كتير

- أهم حاجة الفرح في ميعاده مش فاضل غير أسبوعين يكون في علمك أنا اشتريت الأبواب وركبت الاوكر هاا!

- متتأخرش عشان جعانة.

***

توالت الأيام كنت أذهب للمستشفى كل يوم وبعد انتهاء العمل أحضر لوازم الزفاف واختيار ما تبقى من أشياء.. ولا زالت أسرار المرضى تؤكد تلك العبارة "كنا بخير.. لولا أحدهم".. تتوالى الأسرار التي تخلف بفؤادي حزنًا.. غلب على شعور عروس لا يفصل عن زواجها سوى يومين!

أنهيت عملي بذلك اليوم وحصلت على أجازة الزواج.. وذهبت لاقتناء باقي لوازم الزفاف:-

- ألو أيوه يا ماما خلاص جبت الستاير اه نفس الألوان اللي اختارناها ودفعت باقي الفلوس خلاص بقي يا ماما هطلع أوديهم الشقة وارجع البيت

كنت حاسة بفرحة وأنا طالعة شقتي أنا وسمير حبيبي كنت خايفة من الجواز والمسئولية بس كنت فرحانة شعور ميتوصفش

اخبط ولا اعملها ليه مفاجأة لا هعملها له مفاجأة

قمت بفتح الباب ببطء شديد وتركته مفتوح وضعت الستائر على الأريكة أخذت ابحث عنه بعيني في الشقة حتى سمعت صوت يأتي من غرفة النوم

- أنت قفلت الباب ليه الدنيا حر

- أصل أنا بعشق الأماكن المغلقة تعالي بس هقولك

وقفت أمام الباب مذهولة استجمعت قوتي لأفتح الباب.. لينتفض هو وتلك العاهرة:

- نسيم أنتي بتعملي أيه هنا بصي افهميني هشرحلك الموضوع مش زي ما أنتي فاهمة

تسمرت عيني على مسدسه الميري.. فلم أعد إلى وعيي إلا بعد ما أفرغت طلقاته التسعة بجسده ولم أعد استطيع التحرك سمير ملقى يغرق في الدماء وتلك الغانية تصرخ والجيران وهم يلتفون حولي.

***

تم إحالة نسيم إلي مستشفى الأمراض العقلية وفقا لحكم المحكمة بعد عرضها على الكمسيون الطبي

صدقيني يا مس هاجر أنا لو رجع بيا الزمن هقتله تاني وتالت لأنه قتلني وجبني هنا.

انصرفت نسيم بعدما استجابت لإلحاحي الدائم عليها.. أخبرتني بقصتها وسبب تحولها من ممرضة إلى نزيلة بذلك المشفى.. تركتني وذهبت لتغفو على ذلك السرير وفوق رأسها تلك الجملة التي لم اهتم بها في الصباح والتي تقول:

"كنا بخير لولا أحدهم"